

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح رياض الصالحين

شرح حديث أبي سليمان مالك بن الحويرث - رضي الله عنه - "ارجعوا إلى أهليكم فاقيموا فيهم وعلموهم ومرؤهم"

الشيخ / خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه لسفر وغيره أورد المصنف - رحمه الله - حديث أبي سليمان مالك بن الحويرث - رضي الله تعالى عنه وأرضاه - قال: أتينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن شبة متقاريون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رحيمًا رفيقاً، فظن أبا قد اشتقتنا أهلاً، فسألنا عنمن تركنا من أهلاً، فأخبرناه، فقال: ((ارجعوا إلى أهليكم، فاقيموا فيهم، وعلموهم ومرؤهم، وصلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ولبيكم أكبركم))^(١)، متყق عليه. زاد البخاري في رواية له: ((وصلوا كما رأيتمني أصلبي)).

مالك بن الحويرث - رضي الله تعالى عنه - قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحاب له، وكانوا كما جاء في هذا الحديث: "شبة متقاريون"، يعني: في السن، جاءوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليتشرفوا برؤيته - عليه الصلاة والسلام - والأخذ عنه، والتلقفه على يده.

يقول: فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رحيمًا رفيقاً، وهذا يؤخذ منه الرحلة في طلب العلم، وبقوا هذه المدة عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

يقول: فظن أبا قد اشتقتنا فسألنا عنمن تركنا، وظاهره أنهم اشتاقتوا إلى أهلهم، أي: إلى زوجاتهم، وبدل على ذلك من السياق أنه سأله عن تركوا، يعني: لو كانوا اشتاقتوا إلى إخوانهم - مثلاً - أو إلى آبائهم أو أمهاتهم أو نحو ذلك فإن السؤال قد يكون لا معنى له، لكن لما سأله تحقق أنهم قد تركوا أزواجهم خلفهم، وبدل على ذلك قوله - رضي الله عنه -: وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رحيمًا رفيقاً، بمعنى: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - راعى أحوالهم، وذلك أن الرجل قلما يصبر عن امرأته مدة تطول، ويشق عليه أن يصبر مثل هذه المدة - عشرين ليلة -، هذا الرجل السوي، الذي ليس به بأس، ولا علة.

ومن هذا نأخذ فائدة، وهي: أن هؤلاء الخدم من النساء والرجال، من السائقين وغيرهم، هم ليسوا جمادات، يجلس الواحد عن امرأته وقد يكون جاء من بلد يباح فيها كل شيء من حدود الله - عز وجل -، يستبيحونه ويستحلونه، ثم يجلس عنده لمدة سنتين، أو تجلس هذه الخادمة لمدة سنتين، لا تسفر، ليس معها زوج، أو هذا ليس معه زوجة، فما ظنك؟ ما الذي يفكر به؟ ما الذي يشغل ذهنه؟ ما الذي يقوم معه ويقعد يستحوذ على تفكيره؟

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمعة، وقول المؤذن: الصلاة في الحال في الليلة الباردة أو المطيرة (١٢٨)، رقم: (٦٣١)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامية (٤٦٥).

هو هذه الغريزة المتوقدة، التي لربما يوجد ما يثيرها ويحركها من مشاهدات وقنوات، ولربما في الشبكة، أو في هذه الأجهزة عن طريق الهاتف، فيرى أشياء تستقر الرجل الهرم، فتعيده صبياً -نَسَأَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ-، فكيف بهذا الإنسان الذي يمتلك قوة وشباباً؟، ثم بعد ذلك هو الذي يذهب بالبنات، ويأتي في كل يوم، والله المستعان. هذه أمور تحتاج إلى مراعاة، يؤتى معه بزوجته، فيكون ذلك أدعى إلى العفاف وغض البصر.

يقول: فقال: ((ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم وعلموهم، ومروهם)).

النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمرهم أن يرجعوا، هم بقوا عنده عشرين ليلة، يرجعون إلى أهليهم، فيعلمون هؤلاء، ويدعوونهم إلى الله، ويأمرنهم، وينهونهم، وما أشبه ذلك.

هل يؤخذ منه أن الإنسان إذا تلقى العلم في مدة كهذه في عشرين ليلة، أو نحو ذلك، أنه يكون مؤهلاً ليحمل الدعوة إلى الناس، ويتصدر في هذا؟

الجواب: لا، النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: ((بلغوا عنِّي ولو آية))^(١).

فهذا في البلاغ، يبلغ عنه ولو آية، لكن الدعوة ليست مجرد بلاغ لآية، أو بلاغ لحديث، الدعوة تحتاج إلى فقه، تحتاج إلى معرفة بأحوال المخاطبين، وتحتاج إلى معرفة بما يخاطبون به، وتحتاج إلى معرفة بواقع هؤلاء الناس والبيئة التي يعيشون فيها، ويراعي ذلك كله، لاسيما في زماننا هذا، فالإنسان حينما يذهب إلى بلاد كثيرة، فإنه يُسأل عن الدقيق والجليل، يُسأل عن كل شيء وأمور من النوازل الكبار، ويُظن بهذا الذي قد جاء أنه من العلماء، ولذلك أقول: فرقٌ بين أن يقال للإنسان الذي تعلم بعض العلم ويدركه إلى ناحية، هو أمثالهم، يقال له: اذهب إلى أهلك وعلمهم ما تعلمت، وتأمرهم وتتهدّهم، وفرقٌ بين أن يقال له: تصدر، شرق وغرب، تذهب وتدعوا إلى الله.

النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حينما كان يبعث من يعلمون الناس، كان يبعث علماء، كما بعث معاذًا -رضي الله تعالى عنه-، يبعثهم إلى الأقاليم، إلى البلاد التي تحتاج إلى تعليمهم وعلمهم وقضائهم، وما أشبه ذلك، لكن هؤلاء من الوفود الذين وفدوا على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فحينما يعلمون أشياء من دين الله -تبارك وتعالى- هم يذهبون إلى قومهم، فيفقهونهم بهذه الأمور، فرقٌ بين التصدر للدعوة أو للعلم، وبين كون الإنسان يبلغ أشياء تعلمها لأهله وقومه وجماعته.

قال: ((وصلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا)) يعني: علمهم المواقف، والمواقيت جاءت مفصلة، جبريل صلى بالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في يومين، اليوم الأول في أول الوقت، وفي اليوم الثاني في آخر الوقت، وقال له: الوقت ما بين هذين.

وكذلك الأعرابي الذي سأله النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن مواقيت الصلاة، فأمره النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يصلّي معه يومين، فصلّى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في اليوم الأول في أول الوقت، وصلّى في اليوم الثاني في آخر الوقت.

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل (٤/١٧٠)، رقم: (٣٤٦١).

يقول: ((إذا حضرت الصلاة))، يعني: دخل الوقت، ((فليؤذن لكم أحدكم))، ويحتمل أن يكون المقصود حضرت الصلاة: يعني: أردتم الصلاة، بمعنى متى يؤذن الإنسان؟ هل يؤذن للوقت؟ أو يؤذن إذا أراد أن يصلني؟ يؤذن للوقت؛ لأن الأذان هو الإعلام بدخول وقت الصلاة، على قول بعض العلماء، والواقع أن الأذان هو إعلام بدخول وقتها وزيادة، بمعنى: أن من الفقهاء من رخص في الأذان قبل دخول الوقت، بعضهم رخص في هذا بعض النظر عن كون هذا صواباً أو لا، لكن يوجد من الفقهاء من رخص في مثل الفجر أن يؤذن قبل الوقت، مما صار إعلاماً لدخول الوقت على هذا القول، كذلك أيضاً حينما يجمع بين الصالحين لا يؤذن للأولى في جمع التأثير عند دخول الوقت، وإنما يؤذن في وقت الثانية.

كذلك لو أنه صلى في منتصف الوقت ليس في أوله ولم يؤذن، هل يشرع له الأذان أم لا يشرع؟ نقول: نعم، لا بأس أن يؤذن، مما صار إعلاماً لدخول الوقت، فهو عبادة.

يقول: ((وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ولبيكم أكبركم)). في الأذان قال: أحدكم، وجاء في حديث الأذان أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتاً))^(١).

فدل على أن الأذان يطلب فيه حسن الصوت، بخلاف الإمامة، فإذا وجد اثنان أحدهما أندى في صوته، فإنه أولى بالأذان.

وأما بالنسبة للإمامية فقال: ((ولبيكم أكبركم)) هذا الحديث مخرج في الصحيحين، لكن تجمع الأحاديث الواردة في هذا الباب، فقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((بِيَوْمِ الْقِرْئَةِ هُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ...))^(٢). ورتب بعده أعلمهم بالسنة، إن كانوا في القراءة سواء، فدل ذلك على أن الأكبر إنما ذلك لأنهم -والله تعالى أعلم- كانوا سواء في القراءة والفقه والعلم بالسنة، جاءوا جلسوا جميعاً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- عشرين ليلة، فهذا القدر الذي تعلموه جميعاً على حد سواء، فهنا ما المرجح؟ علم هؤلاء بالقرآن وبالسنة متعدد، متساوٍ، فالمرجح هو السن في هذا الحديث، وإلا فالافتراض.

واختلف العلماء -رحمهم الله- في المراد بالأفرا، هل المقصود أن يكون الإنسان أقرأ بمعنى أحفظ، أو أن المقصود الحفظ وزيادة؛ لأن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- والسلف الصالح ما كانوا يتلقون القرآن كما نتلقى، فكانوا يتلقونه مع التفه بمعانيه، ابن عمر جلس في البقرة ثمانيني سنوات، عمر جلس اثنيني عشرة سنة، كما يقول أبو عبد الرحمن السعدي: أخبرنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كعثمان -رضي الله عنه- أنهم ما كانوا يتتجاوزن خمس آيات، أو عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً^(٣).

وحيث ابن عمر -رضي الله عنهما- كنا نتلقى الإيمان قبل القرآن^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في السنن، كتاب الصلاة، باب الرجل يؤذن ويقيم غيره (٥٨٧/١)، رقم: (١٨٧٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامية (٤٦٥/١)، رقم: (٦٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤٦٣/٣)، رقم: (٢٣٤٨٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٩١/١)، رقم: (١٠١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٠/٣)، رقم: (٥٢٩٠).

وغير ذلك مما يدل على أنه كان مصطلح القراء عندهم يعني العلماء، لما قيل: قُتل سبعون من القراء، يعني: هؤلاء أهل علم، لما استهزا المنافقون قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -في غزوة تبوك- أشد حرصاً على البطون، إلى آخره، هم يقصدون طلبة العلم، يقصدون المشايخ، يقصدون العلماء، يستهزئون بهم كما يستهزئ بعض الكتاب اليوم في الصحف، يستمدون علماءنا من الأحياء والأموات، ويسخرون منهم، ومن فتاواهم وكل يوم شانين حملة على واحد، ما تركوا أحداً، والبقية في الطريق.

فالمعنى أن القراء عند كثير من أهل العلم بمعنى: الفقهاء، العلماء، لكن ليس هذا محل اتفاق، الذين قالوا: المقصود مجرد القراءة استدلوا على هذا بأشياء أيضاً.
الأقرأ، ثم الأعلم بالسنة، والسن يكون مرجحاً بعد ذلك.

يقول: وفي رواية للبخاري ((وصلوا كما رأيتمني أصلني)) لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى أمامهم على المنبر، وعلّمهم، وأمرهم أن يتّسوا به، وهذا الحديث مشهور جداً في صفة صلاة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وفيه أنه جلس للاستراحة.

الشاهد في هذا الحديث هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصاهم، قال: ((ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم...)) هذا الشاهد في الباب، وصية المسافر عند توديعه.
والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآلها وصحبه.